أبو القاسم سعد الله بين وطنيته الجزائرية وقوميته العربية

أ.د. المختار الطاهر كرفاع
جامعة الزاوية / ليبيا

تقديم/

من غير شك أن الكتابة عن أبي ا لقاسم سعد الله من خلال ما تركه من كتب ومقالات في الأدب والثقافة والتاريخ ليس بالأمر الهين ، خاصة على باحث غير جزائري لم يطلع على ما تركته هذه الشخصية إلا منذ فترة قريبة جداً.

فرغم العلاقات التاريخية التي تربط الشعبين الليبي والجزائري من أواصر الجوار واللغة والدين والتاريخ والجغرافيا والمصير المشترك ، فإن المنتوج الفكري والأدبي والثقافي لمفكري ومثقفي ومؤرخي الجزائر لم يجد طريقه إلى الوسط الثقافي الليبي بشكل يماثل ما عليه إنتاج مثقفي المشرق العربي ، كما لم يصل الانفتاح الثقافي بينهما إلى خطوات متقدمة تسمح بدخول المنتوج الثقافي إلى كلا البلدين . ورغم ما يتداوله العامة وبعض المثقفين العرب من أن اقطار المغرب العربي هي خارجة عن محيطها العربي ثقافياً وفكرياً بسبب الغزو الثقافي الذي مارسته فرنسا عليها طيلة المرحلة الاستعمارية ، مما فرض على تلك الأقطار قيداً لا يمكن التخلص منه بسهولة ويسر ، فإن المطلع على الانتاج الفكري والعلمي والثقافي والأدبي لأبناء هذه الاقطار يرى عكس ذلك تماماً ، إذ برز جيل من الكتاب والمثقفين والشعراء والأدباء والمؤرخين بعد استقلال بلدانهم سعوا بكل جهد ومثابرة إلى إعادة ربط أواصر العلاقات مع محيطهم العربي الاسلامي من خلال كتابات شعرية أو أدبية أو فكرية أو تاريخية ، ومن هولاء الأعلام على سبيل المثال لا الحصر : عبد الله العروي ، يحي بوعزيز ، محمد صالح الجابري ، عبد الجليل التميمي ، محمد عابد الجابري ، الشيخ عبد الرحمن الجيلاني ، وعباس الجراري، محمد العربي الزبيري، ومولود قاسم نايت بلقاسم ، محمد الميلي . ومحور هذا اللقاء الدولي العلامة أبولقاسم سعد الله ، والقائمة تطول ولا يسع المجال لذكرها.

أبولقاسم سعد الله علم من أعلام الجزائر ، بل علم من أعلام الفكر والثقافة والتاريخ في الوطن العربي ، علم عاش جزءاً من حياته في ظل الاستعمار الفرنسي وجبروته على أبناء وطنه، شاهداً بأم عينيه سقوط عشرات الألاف منهم على أيدي القوات الفرنسية عام 1945 وما بعدها،لا لذنب اقترفوه إلا مطالبتهم لفرنسا بتنفيذ وعودها التي قطعتها خلال الحرب بمنحهم الاستقلال . ثم كان شاهداً على تفجر ثورة نوفمبر الخالدة بل ومشارك فيها بسلاح القلم والفكر ، وبعد الاستقلال كان قلماً وطنياً وقومياً بحث وكتب وأرخ للجزائر اعتزازاً بها وبثقافتها ونضالها وتاريخها وحضارتها التي هي جزء من حضارة الشرق العربي الإسلامي ، نفض الغبار عما تركه الرواد من ابناء وطنه ، جمع وحقق ما كان متناثرا من انتاجهم الفكري والتاريخي والعلمي والأدبي بين المكتبات المحلية والدولية ، أَبرز الوجه الناصع للجزائر التي حاول المستعمر بكل السبل طمس شخصيتها وتاريخها وإلغاء هويتها والقضاء على لغتها ودينها ، وجعلها جزءاً من فرنسا وإلى الأبد.

لم ينس سعد الله المحيط والإقليم الذي ينتمي إليه تاريخاً وجغرافيةً وديناً ولغةً ومصيراً مشتركاً ، فعمل على وصل ما قطعه الاستعمار بين وطنه الجزائر ومحيطه العربي الإسلامي ، تأكيداً للبعد القومي الذي يجمع الجزائر بمحيطها العربي مستنداً إلى حقائق التاريخ والجغرافيا والدين واللغة والمصير المشترك.

تتناول هذه الورقة دراسة جهود هذه الشخصية في بحثها عن هويتها الوطنية وقوميتها العربية من خلال ما تركته من إنتاج علمي وتاريخي وفكري يستند إلى المخزون الثقافي والحضاري للجزائر ، دون الاستعانة بأي دراسات مهما كان نوعها حول ذلك الانتاج ، أو آراء مساندة أو معارضة لها ، وذلك بسبب عدم إطلاع الباحث عن أية دراسة حول هذه الشخصية وإنتاجها الفكري والأدبي والعلمي ، وكذلك منعا لأي تأثير قد تتركه تلك الدراسات على كاتبها .

وتسهيلا للبحث قسمت هذه الورقة إلى محورين اثنين هما :.

المحور الاول . البعد الوطني في كتابات أَبوا لقاسم سعد الله.

المحور الثاني . البعد القومي في كتابات أَبوا لقاسم سعد الله.

أولاً. البعد الوطني في كتابات أَبوا لقاسم سعد الله :.

في عام 1830 وقعت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي الذي استمر حتى عام 1962م ، خلال هذه الفترة الطويلة عملت فرنسا بكل السبل على طمس الهوية الوطنية للجزائر أرضاً وسكاناً من خلال ما صدر من قوانين وقرارات وتشريعات وما نُفذ من سياسات كان الهدف منها سلخ الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي وإلحاقها بفرنسا وإلى الأبد .

نجحت فرنسا في بعض الجوانب من سياساتها تلك وفشلت في الكثير منها ... بل ربما كان الفشل هو مصير تلك السياسات بفضل نضال وكفاح الجزائريين طوال الحقبة الاستعمارية ومقاومتهم للمستعمر الفرنسي في حفاظهم على هويتهم الوطنية ، ثم جاءت مرحلة ثورة نوفمبر لتكون البداية الحقيقية والفعلية لعودة تلك الهوية بفضل تضحيات ابناء الجزائر ومساندة بني قومهم والمحبين للحرية في مختلف أنحاء العالم.

من هذه النقطة ـ نقطة إعادة الهوية الوطنية للجزائر وشعبها وتنقية تاريخها وإعادة كتابته بالشكل الذي يعيد لها شخصيتها وهويتها العربية الاسلامية كانت انطلاقة أَبولقاسم سعد الله . يقول في مقدمة كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الاول ما نصه " سيلاحظ القارئ العربي أن اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق ، لأن تاريخ الجزائر قد تعرض إلى تشويه فضيع على أيدي كُتّاب المدرسة الاستعمارية في غياب مدرسة وطنية موازية .[1]

لقد أدرك سعد الله أن الجزائر التي حصلت على استقلالها بعد استعمار استيطاني وثقافي بغيض استمر ما يزيد عن مئة وثلاثين عاماً في حاجة ماسة وملحة إلى إثبات هويتها الجزائرية العربية الإسلامية. وأن ذلك الاثبات لن يتم إلا بالعودة إلى الجذور إلى التاريخ والتراث الجزائري ، يقول في ذلك " كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار ، وأن نلجأ في ذلك إلى العلم والمنهجية واللغات الأخرى .. لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا .[2]

لم ينس سعد الله وهو المهتم بالتاريخ كجانب مهم ورئيسي في تأكيد وطنيته ، لم ينس العودة إلى التراث العربي الاسلامي للجزائر وإبرازه من خلال نشر كل ما يتعلق بمساهمة الجزائريين في ذلك التراث شعراً وأدباً وتاريخاً وثقافةً وتراثاً فكريا إسلاميا شكل عند سعد الله شاهداً على تواصل

الرسالة الحضارية للأمة العربية الاسلامية ، مؤكداً على أن بعث هذا الرصيد يدخل ضمن تأصيل مستقبل الجزائر.[3]

كانت أولى خطوات سعد الله البحثية في تأكيد وطنيته الجزائرية هى تتبع ورصد الخطوات والسبل والطرق التي استعملها الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر في كتابة وجمع التراث الجزائري ، من خلال ما قاموا به من نشر الاثار القديمة ، إنشاء اللجان العلمية للبحث والتعريف بالآثار الجزائرية ، تكوين الجمعيات المختصة والصحف والدوريات وإنشاء المتاحف التي تحفظ المكتشفات التاريخية [4] ، دون أن ينسى ـ وهو يبحث عن هويته الجزائرية ـ الحديث عن دوافع الفرنسيين من وراء اهتمامهم بالتاريخ الجزائري في " كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعباً متحضراً حكموا شعباً متخلفاً ، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم .... وهي معطيات حسب وجهة نظره هي التي قررت نوعاً من الحتمية التاريخية لدى الفرنسيين ، وهي نفسها التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين. [5]

ويتضح من تتبع سعد الله لجهود الفرنسيين في كتابة التاريخ الجزائري كيف أنهم كونوا جيوشاً من الباحثين والكتاب الذين كتبوا وسجلوا كل ما يتعلق بالجزائر وشعبها ، وأن تلك الكتابات عكست بصورة واضحة النظرة الاستعمارية الدونية للجزائريين ، يقول في هذا السياق " عكست تلك الدراسات التي ظهرت بمناسبة مرور مئة سنة على احتلال الجزائر مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ... والتي تمحورت في مجملها على تبرير الاستعمار والتأريخ له ، ومن ثم العمل على إنجاحه واستمراره" [6] بل أن الكتابة التي تمت للتاريخ الجزائري على أيدي أولئك الفرنسيين تمت وفق رؤية فرنسية خالصة كان الهدف منها مساعدة الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر كي تسيطر على الجزائريين ، ثم وهو الأهم الدعاية للثقافة والوجود الفرنسي بين الجزائريين .. والغاية الأبعد لكل ذلك هو طمس تاريخ وثقافة ولغة الجزائريين ليتحولوا وفق هذه السياسة مع الزمن إلى مسخ لا قيمة له سوى التبعية لفرنسا ... مؤكداً على أن نظرة أولئك الكتاب الفرنسيين للجزائر وشعبها لم تخرج عن أَنها منطقة جغرافية تعاقبت عليها الدول والشعوب عبر القرون ، وأن شعبها لا يشكل كياناً أو أمة أو مجتمعاً متماسكاً وإنما هو مجموعة من القبائل المتناثرة التي لا يجمع بينها جامع ، وأن تلك القبائل لا تخضعها إلا القوة. [7]

ركز سعد الله في دراسته للتاريخ الجزائري على نقاط مهمة ومفصلية يرى أَنها تشكل محوراً أَساسياً في البحث عن الشخصية الوطنية ، من قبيل ـ أن الجزائر رغم قلة تدوين الجزائريين لتاريخهم ـ لا تخلُ من رموز فكرية وسياسية ودينية وعسكرية تركت بصماتها بشكل واضح وجلي على صفحات التاريخ الوطني الجزائري والذاكرة الوطنية كذلك ، ومن ثم المخزون الثقافي والفكري والأدبي ، وفي هذا السياق تأتي كتابات سعد الله المتعددة ضمن كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر بأجزائه المتعددة ، الذي جمع موضوعات متنوعة حول تلك الشخصيات وما تركته من إنتاج فكري وثقافي وسياسي وأدبي وشرعي ، منها على سبيل المثال لا الحصر. أحمد برناز وكتابه الشهب المحرقة ، وعبد الحميد زوزو وكتابه نصوص ووثائق جزائرية ، والحسن الورثلاني وكتابه رحلة الورثلاني، وأبي راس الناصر وكتابه فتح الاله ،(وهو الذي عاصر المؤرخ المصري الجبرتي) ، وكتابه عن الحملة الفرنسية على مصر بعنوان أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس ، وقد ذكر سعد الله أن لهذا العالم ما يزيد عن عشرين كتاباً شملت في معظمها تاريخ المغرب العربي منذ دخول الإسلام وإلى حياة أبي رأس ، وقد أفرد له سعد الله حيزاً بارزاً في كتابيه تاريخ الجزائر الثقافي ، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجز الثاني .[8] لقد بينت هذه الاعلام وما تركته من نتاج فكري وأدبي وتاريخي وثقافي أن الجزائر لم تكن يوماً عقيمة على إنجاب العلماء الذين ساهموا في إثراء الحضارة الانسانية.

جانب آخر شغل بال سعد الله في بحثه عن وطنيته الجزائرية وإعادة الاعتبار لها ، والتي شكلت لديه رافداً من روافد التاريخ الجزائري ، تلك هي الرواية الشفوية لما لها من أهمية في كتابة التاريخ الوطني ، وتعريف الأجيال القادمة بما سطره الأباء والأجداد من كفاح ضد الغزاة حفاظاً على استقلال الوطن وكرامته ، خاصة وأن التوثيق لما حفلت به الجزائر من أحداث وثورات ضد المستعمر الفرنسي منذ دخوله لها وحتى خروجه منها لم توثق روايات عن الذين لا زالوا على قيد الحياة من المناضلين الذين شاركوا فيها. فرواياتهم تشكل تكملة لما تتضمنه الوثائق الرسمية والمذكرات الشخصية والصحفية من معلومات ، بل ربما تتضمن معلومات غفلت الوثائق عنها ، ولذلك كانت محاورته للأمير حسن بن عبد المالك بن عبد القادر نزيل دمشق عن ثورة والده الامير عبد المالك الجزائري في المغرب بين سنتي 1914 و 1924 ضد

الفرنسيين جانباً مهماً في تأكيد الهوية الجزائرية ، وكذلك معلوماته عن جده الأمير عبد القادر والتي ضمنها سعد الله في كتابه الحركة الوطنية الجزائرية الصادر عام 1969 عن دار الآداب ببيروت. إلى جانب الرواية الشفهية وأهميتها في كتابة التاريخ الجزائري ، كان هناك جانب آخر لم يغفل عنه سعد الله في بحثه عن هوية بلاده ووطنيته الجزائرية وغرسها بين أجيال ما بعد الاستقلال ، ولإكمال صورة الجزائر الناصعة البياض لدى تلك الاجيال ، تلك هى علاقات الجزائر مع الدول الاجنبية قبل الاحتلال الفرنسي ، لتشكل تلك الدراسات مكملة لجانب مهم في التاريخ الوطني الجزائري ، ولعل أَوضح مثال في هذا الصدد دراسته للعلاقات الجزائرية الأمريكية 1776 ـ 1830 الصادرة عام 1964 نموذجا واضحا للدبلوماسية الجزائرية ونجاحها في فرض هيبة الدولة الجزائرية على القوى الغربية في البحر المتوسط وخاصة في شقه الغربي ، كما كانت توضيحا للدور الجزائري في العلاقات الدولية [9]، فيما كانت دراسته لمراسلات الامير عبد القادر مع بريطانيا والولايات المتحدة خلال كفاحه ضد الغزاة الفرنسيين دليل آخر على قدرة الدبلوماسية الجزائرية في استغلال الخلافات الاوروبية لصالح دعم نضال الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي. [10]

لعل القضية الأبرز التي شغلت تفكير سعد الله وسخر لها الكثير من الوقت والجهد ، وكتب فيها الكثير من الكتب والدراسات والمقالات هي قضية كتابة تاريخ الثورة الجزائرية وتدوينه من مصادره المختلفة ، الرسمية والوثائقية والشفهية وبأدق التفاصيل ، من خلال برنامج وطني تسخر له كل الامكانيات المادية والبشرية ، فالتاريخ هو ذلك المخزون الفكري والثقافي للشعوب ، وتاريخ الثورات الكبرى التي غيرت واقع شعوبها ومنها الثورة الجزائرية تستحق أن تحتل مكاناً بارزاً في حياة شعبها ، يقول سعد الله في هذا الشأن " يمكن القول وبلا مبالغة أن الثورة الجزائرية هي أعظم ثورة قام بها إنسان العالم الثالث ، وهي أعظم ثورات العصر الحديث ، ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ هذه الثورة ، وهى مسؤولية كل الأطراف حكومية رسمية أو شعبية أو أكاديمية ، آخذاً في الحسبان الفوارق في المنهجية والأسلوب بين هذه الجهات عند كتابتها لهذا التاريخ " [11] وزيادة في حرصه على هذا العمل الوطني انتقد سعد الله الإهمال الذي تعرضت له عملية تدوين تاريخ الثورة من قبل أبناء وطنه الذين ـ حسب قوله ـ أهملوا تاريخ

بلادهم بشكل عام وتاريخ ثورة نوفمبر بشكل خاص ، يقول في هذا السياق في الجزء الثاني من كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ما نصه " إنه لو حدثت ثورة كثورة الجزائر في بلد آخر يهوى أهله الكتابة لكتب عنها أهلها وليس الأجانب المجلدات ولفاخروا بها الشعوب الأخرى كتابةً وليس قولاً ، لكن ثورة الجزائر عند الجزائريين ما تزال حادثة تتردد حولها الشعارات فقط ، مثل ثورة المليون شهيد ، والثورة من الشعب وللشعب ، وثورة تحرير العالم الثالث ، واذا لم تساند الكتابة هذا الادعاء فستبقى شعارات جوفاء لا حياة فيها.... ولذلك فإن الكتابة عن التاريخ الجزائري عموماً بما فيه تاريخ الثورة ليست مهمة المؤرخ وحده ، بل قدر مشترك بين جميع المواطنين كل حسب دوره وتفسيره لما حدث ".[12] وفي هذا السياق كانت " الحركة الوطنية الجزائرية 1900 ــ 1930 " موضوعاً لأطروحته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية دليلا على اهتمامه المبكر بهذا التاريخ وبداية لدراسات علمية أكاديمية طويلة لتاريخ الجزائر الحديث. وهذه قناعة منه أن هذا التاريخ قد مسه الإهمال من قبل من أرخ للجزائر ، كما أن هذه الدراسات مثلت مرحلة جديدة من تاريخ الحركة الوطنية التي بدأت بحملة من أجل اليقظة والمحافظة على الخصائص الذاتية للجزائر ، وانتهت بظهور الاتجاه الانفصالي الذي رفض كل مساومة مع الفرنسيين [13]

جانب آخر شغل تفكير سعد الله وهو يبحث عن تاريخ بلاده وهويتها العربية الاسلامية التي شوهت من قبل الباحثين الأَجانب إبان المرحلة الاستعمارية ، ونقصد بها الدراسات التي أَصدرها الباحثون الغربيون بشكل عام والفرنسيون بشكل خاص ، والتي لم تكن في مجملها منصفة للجزائر ودورها الحضاري ، بقدر ما كانت تشويهاً لذلك الدور وذلك التاريخ . لذا عمل سعد الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا على جمع ما كتبه أولئك الباحثون الأَجانب عن الجزائر خلال فترات تاريخية مختلفة ، وأخضع تلك الكتابات للمراجعة العلمية ، فصحح ما ورد فيها من أخطاء ، وأَثنى على المنصف منها للجزائر وشعبها ، ولعل من أَهم أعماله في هذا الشأن: مراجعته ونقده لكتاب شارل أندري جوليان المعنون بتاريخ الجزائر المعاصرة الصادر عام 1964م ، رغم إقرار سعد الله لأهمية الكتاب وتقديره للجهد الذي بذله المؤلف فيه ، إلا أنه وصفه بأنه تاريخاً لفرنسا في الجزائر وليس تاريخاً للجزائر المعاصرة ، إذ حفل بالكثير من الأخطاء في حق الجزائر

والتحامل على شعبها ونعته بالتخلف والتعصب الديني ، فيما كان محتوى الكتاب وأسلوبه تخليداً وتمجيداً للعهد الاستعماري ، يقول سعد الله في دراسته النقدية للكتاب " إن هدفها يتلخص في تنبيه القارئ إلى أن هذا الكتاب لا يؤرخ للجزائريين ، ولكنه يؤرخ للاحتلال الفرنسي للجزائر "[14]

ثانياً. البعد القومي في كتابات أَبي القاسم سعد الله.

شهدت الفترة اللاحقة لانتهاء الحرب العالمية الثانية نمو التيارات السياسية المختلفة ، وخاصة بين شعوب العالم الثالث الساعية للاستقلال والحرية والتخلص من الهيمنة الغربية الاستعمارية ، وكان الوطن العربي السباق في ذلك ، إذ عرف أول حركة تحررية ضد الاستعمار القديم ممثلة في ثورة 23 يوليو 1952 في مصر بقيادة جمال عبد الناصر ، التي رفعت شعارات وطنية وقومية وعالمية ، ووجدت هذه الشعارات صداها بين الشعوب العربية في أَقطارها المختلفة.

في الفاتح من نوفمبر 1954 م انطلقت الثورة الجزائرية المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي ووجدت دعماً منقطع النظير من أبناء الأُمة العربية وأحرار العالم ، فعلى المستوى العربي نُظر للثورة الجزائرية على أنها صحوة لحركة القومية العربية في المغرب العربي ، وعلى المستوى العالمي كانت الثورة الجزائرية مثالا يحتذى للشعوب المطالبة بحريتها الباحثة عن هويتها التي طمسها الاستعمار طيلة قرون من الزمن .

يقول أَبوالقاسم سعد الله وهو يكتب عن تاريخ الجزائر وعلاقة شعبها ببقية الشعوب العربية ما نصه " سيجد الجيل الطالع في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة سيجد في دراسة تاريخه قصة ماضيه الذي كان حلقة وصل بين الأَندلس غرباً وبغداد شرقاً "[15]

وسط هذا الزخم القومي العربي ، الذي اتخذ من القاهرة مركزاً قيادياً له ، عاش أَبوالقاسم سعد الله ، وهو الذي لم تختلف حياته كثيراً عن حياة معظم الجزائريين الذين اتجهوا نحو الثقافة الوطنية في عهد الاستعمار حفاظاً على هويتهم العربية الاسلامية ورفضاً لسياسة التغريب التي تنفذها فرنسا ضد أبناء وطنه ، ومن ثم عاصروا وعايشوا انتشار الحركة الوطنية السياسية بمختلف توجهاتها وأيدلوجياتها ، والتي لم تكن في معزل عما يجري في الساحة العربية من أحداث سياسية وفكرية من خلال الإطلاع على بعض ما يكتب في المشرق العربي عبر

بعض المجلات الفكرية والأدبية مثل الرسالة ، وأبوللو ، والآداب ، والتي شكلت منابر آنذاك لرواد ومفكري التيار القومي.

في عام 1955م توجه سعد الله للقاهرة انطلاقاً من تونس ، كانت ليبيا أولى محطاته نحو المشرق العربي والتي يقول عنها " منذ أن وضعت قدمي في ليبيا شعرت بالحرية وبروح القومية العربية " [16]

وفي القاهرة التي كانت قبلة الثوار والمطالبين بالحرية في العالم وقبلة القوميين العرب، تبلورت أفكار سعد الله القومية وهو القادم من بلد عربي انطلقت فيه منذ عام ثورة مسلحة غايتها التحرير والاستقلال والعودة للحظيرة العربية الاسلامية ، يقول في ذلك " في القاهرة تبلورت في نفسي عاطفتان . أولهما. الوطنية السياسية ، فالجزائر لم تعد في نظري الأُسرة والقرية والحدود الجغرافية ونحو ذلك ، ولكن أصبحت تعني عندي كل أهل القطر الجزائري .... وبالتالي بدأت أفهم حقيقة الثورة الجزائرية وأهدافها... أما العاطفة الثانية التي تبلورت في نفسي خلال وجودي بالقاهرة فهي القومية العربية ... فالوطن العربي لم يعد في ذهني ذلك الشريط التاريخي من الغزوات ، والشيع الدينية ، والمدارس الأَدبية وغيرها ، ولكن أصبح يعني تلك المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج التي تسكنها أمة عربية واحدة يربطها تاريخ ومصير مشترك وتقوم على حضارة مجيدة ". [17]

في دراساته عن نشوء القومية العربية يرى سعد الله أن القومية بمفهومها العام هي نتاج الثورة الفرنسية ، ولم تنتشر وتتقوى إلا بعد إتمام المانيا وإيطاليا وحدتهما ، وأنها لم تتخذ شكلاً إيجابياً في العالم الثالث إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، أما القومية العربية فقد ظهرت فى مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي منذ عام 1830 .[18] وبناءً على ذلك فهو يرفض كل آراء مفكري ومؤرخي الفكر القومي الذين يؤكدون أن ظهور هذا الفكر انطلق من المشرق العربي رداً على محاولات الاتحادين الاتراك فرض سياسة التتريك على ما بقى من الوطن العربي تحت السيادة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى * ، وأكد نظريته هذه في دراسته حول الحركة الوطنية الجزائرية 1900 ــ 1930 التي ضمنها العديد من النتائج لعل أَهمها إرجاعه لأصول الجامعة الاسلامية والقومية العربية إلى الحركة الوطنية الجزائرية .[19] وكرر رأيه هذا في

مقالته المعنونة بالجزائر والقومية العربية إذ يقول ما نصه " أن سبب كتابته لهذا المقال يعود إلى أمرين اثنين: أولهما . هو ذاك الخطأ الكبير الذي وقع فيه مؤرخو القومية العربية من عرب وأجانب ، حين تناولوا أسباب ظهور هذه الحركة وزمانها ومكانها . والثاني هو النزعة الغريبة التي تروج الآن في الجزائر لأقلمة الثورة على أساس أنها ثورة أحفاد يوغرطة ضد أحفاد الرومان ، وليست ثورة أحفاد الغافقي ضد أحفاد شارل مارتل " [20]

إن في رفضه لهذه التصورات يرى سعد الله أن قومية أية أمة هي أَساساً رد فعل ضد خطر أجنبي ... وفق هذه الرؤية فإنه يرى أن الجزائر هي أول بلد عربي تعرض لخطر أجنبي ، وعلى ذلك فإن مقاومة الشعب العربي في الجزائر منذ عام 1830 تعتبر أول مظهر من مظاهر القومية العربية بمعناها الحديث .... ذلك أن المقاومة في الجزائر التي تلت الاحتلال الفرنسي كانت رد فعل ضد الخطر الاجنبي ، ومن ثم فإن كل حركة مقاومة عربية ضد الخطر الاجنبي هي حركة قومية .. وبالنتيجة فالمقاومة العربية في الجزائر حركة قومية ، وبالتالي فإن الجزائر كانت مركز ميلاد القومية العربية.[21]

وزيادة في تأكيد ريادة المغرب العربي في نشوء القومية العربية يرى سعد الله أن الحركات القومية التي ظهرت في المشرق العربي لم تكن قومية على الإطلاق ، بل هي صنيعة الجمعيات التبشيرية الغربية التي تغلغلت في المنطقة مستغلة ضعف الدولة العثمانية ونظام الامتيازات وحماية الدول الغربية لها ، حيث كان هدفها ضرب الخلافة الاسلامية المتداعية ، بل يذهب ابعد من ذلك إذ وصف الحركة الوهابية بأنها حركة دينية هدفها تطهير الدين الاسلامي لا وحدة الأمة العربية ضد الأَجانب ... فيما وصف ثورة الشريف حسين 1916 ضد الحكم العثماني بالثورة الإقطاعية لا القومية .. بل أن هذه الثورة حسب قوله كانت كسباً للاستعمار والصهيونية لا للعرب كما أثبتت الأَحداث فيما بعد .[22]

زيادة في تجذير فكرته القومية وانتمائه القومي يرى سعد الله في نضال الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي وجهاً آخر للقومية العربية المنبثقة من الجزائر ، مستشهداً بأبيات من شعر الأمير عبد القادر يرى فيها تأكيداً على عروبة الجزائر والتي منها:.

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السحاب لنا رجال

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالمجد القديم علت قريش ومـنا فـوق ذا طـابت فـعال
ومن لم يزل في كل عصر رجـال للرجـال هـم رجــال

يقول سعد الله في تفسيره لهذه الابيات ما نصه " أي عربي يقرأ هذا الشعر ثم لا يشطح به الخيال إلى أيام قريش ومجد الأمويين وعز العباسيين !! وأي قارئ يغيب عنه ما في هذا الشعر من أفكار قومية وسياسية .[23]

لقد عمل سعد الله على توظيف كل ما جاء في سيرة الأمير عبد القادر من نضال عسكري وفكري وأدبي ضد المستعمر الفرنسي وتوظيفه لفكرته التي تتمحور حول أن الجزائر هي منبع القومية العربية في العصر الحديث ، بل ويزيد عن ذلك بأن قام بإجراء مقارنة بين الأمير عبد القادر ومحمد علي باشا في مصر ، إذ رأى في الأول أميراً عربياً أصيلاً يحارب لإنقاذ شعب عربي من نير المستعمر ، فيما كان الثاني أجنبياً يحارب من أجل تثبيت أسرته في الحكم ويوجه ضرباته للخلافة الاسلامية .[24]

لعبت المرحلة التاريخية التي عاشها سعد الله إبان إزدهار الفكر القومي العربي خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أن تركت أثارها واضحة على كل كتاباته المتعلقة بالحركة الوطنية الجزائرية وعلاقاتها بالقومية العربية ، ففي تقسيمه لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية في فترة بين الحربين ، يرى سعد الله أن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت ضمن العائلة العربية الواقعة تحت النفوذ العثماني الاسلامي ... وأنها بعد الاحتلال الذي اقتطعها من الوطن العربي وأزال منها أو كاد معالم الثقافة العربية ، رفضت كل التشريعات الفرنسية التي هدفت إلى إحلال قانون المواطنة الفرنسية الصادر عام 1865 الذي خيّر الجزائريين بين الخضوع للقانون العام الفرنسي وبين احتفاظهم بشريعتهم الإسلامية وتطبيقاتها في الاحوال الشخصية ، فما كان من الجزائريين إلا أن يختاروا الحياة وفق شريعتهم الإسلامية ... ومن ثم أصبح الدين هو الوطن وهو القومية بالنسبة للجزائريين .[25] ووفق هذا الاستنتاج فإن مقاومة الجزائريين السياسية والعسكرية والثقافية للسياسة الفرنسية تمت تحت راية الإسلام ، وبها حافظوا على دينهم وعملوا كل ما استطاعوا للحفاظ على لغتهم العربية .

من جانب آخر يرى سعد الله أنه رغم كل المحن والظروف التي مر بها الجزائريون فإن أواصر التواصل مع اخوتهم في المشرق العربي لم تنقطع ، إذ عرفت التيارات السياسية التي ظهرت هناك ومنها تيار الجامعة الإسلامية طريقها بين الجزائريين وخاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر عام 1903 ولقائه بالنخبة العربية الإسلامية بها... كما كان لهجرة العديد من الجزائريين إلى المشرق العربي في فترة إزدهار فكرة القومية العربية في فترة ما بين الحربين حيث برزت منهم نخبة حملت على عاتقها الدفاع على العروبة والإسلام في المغرب العربي بشكل عام من خلال ما نشروه على صفحات المجلات والصحف الصادرة في المشرق العربي ، ومن أبرز هذه الأَسماء الشيخ ابن باديس ، ومحمد الابراهيمي وغيرهم كثيرون ، الذين كانوا لسان حال الفكر القومي العربي في الجزائر خلال ثلاثينيات القرن الماضي ، وزيادة في تعزيز فكرته وتأكيده على وجود الفكر القومي العربي في الجزائر على وجه التحديد يستشهد ببعض الأَبيات الشعرية للشيخ بن باديس [26] وهي قوله :

شعب الـجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
هذا لكم عهدي به حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

في الفاتح من نوفمبر 1954 م انطلقت الثورة الجزائرية ، وتبنى العرب شعوباً وحكومات هذه الثورة وبها أزداد التيار القومي صعوداً خاصة وأن قيادة عبد الناصر لهذا التيار قد جمع حوله كل القوميين العرب على اختلاف توجهاتهم ، كما كان لوجود مكتب المغرب العربي بالقاهرة دور بارز في زيادة اتصال رواد حركة التحرر العربية المغاربية وخاصة المثقفين والسياسيين منهم برجالات الفكر القومي في المشرق العربي ، الذين رأوا في الثورة الجزائرية زخماً قومياً فاق كل التقديرات ، كما استغل الثوار الجزائريين المقيمين بالقاهرة كل مناسبة قومية أو أي لقاء دولي أو إقليمي إلا واتخذوا منه فرصة للتعريف بقضية بلادهم ومن ثم التأكيد على قوة الروابط التاريخية التي تربط الجزائر بمحيطها العربي ، من ذلك مثلا الاحتفال بالذكرى الثالثة لانطلاقة الثورة الجزائرية ، التي اتخذها سعد الله وهو رئيس لاتحاد طلبة الجزائر آنذاك مناسبة ليجدد

التأكيد على قوميته العربية وعلى عمق الروابط التي تربط دول المغرب العربي بالمشرق العربي ، قال سعد الله في ذلك الاحتفال " إننا نحتفل اليوم بالثورة الجزائرية لا كجزائريين ولا كمغاربة ، وإنما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد ، وهدف واحد ، ووطن واحد ، وأن الثورة الجزائرية قد حصرت أهدافها في أن الجزائر جزءٌ لا يتجزأ من الامة العربية الخالدة ... إن هذه الثورة العربية الصميمة ليست ثورة الجزائر وحدها ، وليست ثورة المغرب العربي فقط ، وإنما هي ثورة العرب جميعاً ... وإن انتصارها ما هو إلا انتصار لفلسطين الجريحة ولمصر وسوريا في صراعهما التحرري ... وانتصارٌ للقومية العربية "[27]

في يوليو 1962 نالت الجزائر استقلالها بعد تضحيات قل نظيرها في العالم ، وخرجت فرنسا مهزومة وانتهت معها مقولة الجزائر جزء من فرنسا وإلى الأبد ، وعاد وجه الجزائر العربي الاسلامي وإن ظلت أثار التشويه الفرنسي ظاهرة بين أبنائها في مختلف مناحى الحياة ، والتي لن تمحى أو تندثر بسهولة ، وهو ما عالجه سعد الله في كثير من كتاباته ، ومنها مقاله المعنون مشاكل الثقافة في الجزائر المستقلة الذي نشرته صحيفة المجاهد الجزائرية في العددين 350 و 351 الصادر في شهر يناير 1967 م وضمنه في كتابه المعنون بمنطلقات فكرية ، والذي عالج فيه العديد من المشاكل التي واجهت ولا زالت تواجه الجزائر ، وهي بحاجة لثورة ثقافية تعيد للبلاد وجهها العربي الاسلامي ، يقول سعد الله في ذلك " إذا كانت الثورة قد قامت بالتزاماتها في عدة ميادين ، فإن كثيراً من التزاماتها في ميدان الثقافة ما يزال ينتظر التحقيق. وصعوبة العمل في هذا الحقل لا ينكرها أحد ، ذلك أن التطبيق هنا يعني التوفيق بين ذكريات الماضي وتمنيات الحاضر وآمال المستقبل. وإذا شئت فقل أنه يعني التوفيق بين متناقضات فكرية تولدت عن اضطرار الجزائريين في أن يعيشوا في العالم الأول وفي العالم الثالث في نفس الوقت[28].

وخلاصة ما يمكن القول حول هذه الشخصية الوطنية والقومية ، أنها شخصية وليدة المرحلة التاريخية التي عاشتها ، شخصية شغل النضال العسكري والسياسي والثقافي من أجل الاستقلال والحرية والبحث عن هويتها الوطنية وانتمائها القومي كل تفكيرها ، فكان نتاج فكرها ذلك الكم الهائل من الكتب والمقالات والأبحاث والندوات والمؤتمرات التي هدفت إلى تأكيد

الهوية الوطنية للجزائريين ، ومن ثم الحرص على انتماء الجزائر إلى محيطها العربي الاسلامي والتخلص من التبعية للغرب الاستعماري ، داعية إلى ثورة أخرى أكثر شراسة من معركة التحرير ألا وهى معركة معالجة التركة الموروثة عن الحقبة الاستعمارية على مختلف الاصعدة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، يقول في هذا الشأن " خاضت بلدان العالم الثالث كفاحاً سياسياً لاستعادة الاستقلال ، ثم دخلت معركة البحث عن الذات القومية ، وهي المعركة التي لم تخرج منها بعد ... فالحضارة الغربية تركت بصماتها على المستعمرات ، ومعظم قادة دول العالم الثالث اليوم كانوا قد تثقفوا في مدارس المستعمرين القدماء وتشكل فكرهم وسلوكهم وذوقهم على غرار فكر وسلوك وذوق الغالبين ، وحين شرعوا في استعادة الشخصية القومية رأى بعضهم طريقها في العودة إلى التراث القديم ، ورآه آخرون في تقليد الغرب في كل *شئ* ، ورآه فريق ثالث في الجمع بين هذا وذاك ، وما دام غبار هذه المعركة لم ينجل بعد فإن الحيرة ما تزال قائمة ، كما أن أحداً لا يعرف نتائجها. [29]

واليوم وبعد مضي ما يزيد عن ستين عاماً على استقلال العالم الثالث والجزائر من بينها يبدو أن ما قاله أبوالقاسم سعد الله حول تلك المعركة ونتائجها ما زالت غير واضحة المعالم ، بل ربما أن الكثير من شعوب تلك الدول تتوق لحقبة استعمارية أخرى بعد الفشل الذريع الذي منيت به حكوماتها الوطنية في مختلف مجالات التنمية ، وإلا بماذا نفسر تدفق جموع المهاجرين غير الشرعيين من ذلك العالم إلى أوروبا والدول المتقدمة ؟ رغم معرفتهم المسبقة أن الموت هو أقرب اليهم من الوصول إلى أرض الاحلام .

هوامش البحث

أبوالقاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 1. دار البصائر . الجزائر . 2007. ص 3.

نفس المرجع والصفحة.

نفس المرجع . ص 4.

أبوالقاسم سعد الله . منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر . ضمن كتاب . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 1 . دار البصائر . الجزائر . 2007 . ص 14.

نفس المرجع . ص 17.

نفس المرجع . ص 23 .

نفس المرجع . ص 36.

أبوالقاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 2 . دار البصا ئر. 2007 . ص 83.

أبولقاسم سعد الله . العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776 ـ 1830 . ضمن كتاب .أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر .ج 2 . دار البصائر. الجزائر . 2007 . ص 281 ـ 304.

أبو القاسم سعد الله . أول اتصال للأمير عبد القادر الجزائري بالبريطانيين والأمريكيين 1835 ـ 1836 . ضمن كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 1. دار البصائر . الجزائر . 2007. ص. 135 ـ 149.

أبوالقاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 2. دار البصائر . الجزائر . 2007 . ص 8.

نفس المرجع والصفحة.

أبوالقاسم سعد الله .الحركة الوطنية الجزائرية 1900 ـ 1930. ضمن كتاب . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج 1. دار البصائر . الجزائر . 2007 . ص 55.

أبوالقاسم سعد الله . الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري . ضمن كتاب . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 1 . دار البصائر . الجزائر 2007 . ص 77.

أبوالقاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 1 . ص 360.

أبوالقاسم سعد الله . في الجهاد الثقافي . ضمن كتاب منطلقات فكرية . الدار العربية للكتاب . ليبيا . تونس. 1976 . ص 47.

المرجع السابق . ص 48.

أبوالقاسم سعد الله . الجزائر والقومية العربية. ضمن كتاب منطلقات فكرية. ص 112.

ينظر في هذا الشأن على سبيل المثال لا الحصر. كوكب سيار الجميل . تكوين العرب الحديث . جامعة الموصل .1991.، توفيق علي برو. القومية العربية في القرن التاسع عشر. دمشق. 1965.جورج انطونيوس. يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية. ترجمة.ناصر الدين الاسد، احسان عباس. بيروت. 1962.محمد عزة دروزة. نشأة الحركة العربية الحديثة. صيدا. 1971م. حازم زكي نسيبة. القومية العربية : فكرتها نشأتها تطورها. ترجمة. عبد اللطيف شرارة. ط2. بيروت. 1962م ، أبوخلدون ساطع الحصري. أبحاث مختارة في القومية العربية . ج1 ،2. دار القدس للنشر ، بيروت. د.ت. علي عباس مراد ، عامر حسن فياض. الظاهرة القومية ، مدخل إلى الفكر القومي العربي. منشورات جامعة قاريونس . بنغازي. 1998.....الخ.

أبوالقاسم سعد الله . تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . 1900 ـ 1930. ضمن كتاب . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 1. دار البصائر. 2007 . ص. 57.

أبولقاسم سعد الله . الجزائر والقومية العربية . ضمن كتاب . منطلقات فكرية. ص . 109.

نفس المرجع . ص . 110.

نفس المرجع . ص 112

نفس المرجع. ص 119.

نفس المرجع والصفحة.

أبوالقاسم سعد الله . الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين ، ضمن كتاب . منطلقات فكرية . ص 125.

نفس المرجع . ص 132.

أبوالقاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 2. ص 223 ـ 233.
أبوالقاسم سعد الله . مشاكل الثقافة في الجزائر المستقلة . ضمن كتاب منطلقات فكرية . ص 144.
ابوالقاسم سعد الله. منطلقات فكرية. ص 6 ـ 7.